

التحرير والتنوير

وهو ذب عن مصلحة الدافع ومعنى الآية : أنه لولا وقوع دفع بعض الناس بعضا آخر بتكوين
□ وإبداعه قوة الدفع وبواعثه غي الدافع لفسدت الأرض : أي من على الأرض واختل نظام ما
عليها : ذلك أن □ تعالى لما خلق الموجودات التي على الأرض من أجناس وأنواع وأصناف
خلقها قابلة للاضمحلال وأودع في أفرادها سننا دلت على أن مراد □ بقاؤها إلى أمد أرادته
ولذلك نجد قانون الخلفية منبثا في جميع أنواع الموجودات فما من نوع إلا وفي أفرادها قوة
إيجاد أمثالها لتكون تلك الأمثال أخلافا عن الأفراد عند اضمحلالها وهذه القوة هي المعبر
عنها بالتناسل في الحيوان والبذر في النبات والنضح في المعادن والتولد في العناصر
الكيميائية . ووجود هذه القوة في جميع الموجودات أول دليل على أن موجدتها قد أراد بقاء
الأنواع كما أراد اضمحلال الأفراد عند آجال معينة لاختلال أو انعدام صلاحيتها ونعلم من هذا
أن □ خالق هذه الأكوان لا يحب فسادها وقد تقدم لنا تفسير قوله (وإذا تولى سعي في الأرض
ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل و□ لا يحب الفساد) . ثم إن □ تعالى كما أودع في جميع
الكائنات إدراكات تنساق بها بدون تأمل أو بتأمل إلى ما فيه صلاحها وبقاؤها كانساق
الوليد لالتهام الثدي وأطفال الحيوان إلى الأثداء والمراعي ثم تتوسع هذه الإدراكات فيتفرغ
عنها كل ما فيه جلب النافع الملائم عن بصيرة واعتياد . ويسمى ذلك بالقوة الشاهية .
وأودع أيضا في جميع الكائنات إدراكات تندفع بها إلى الذب عن أنفسها ودفع العوادي عنها
عن غير نصيرة كتعريض اليد بين الهاجم وبين الوجه وتعريض البقرة رأسها بمجرد الشعور بما
يهجم عليها من غير تأمل في تفوق قوة الهاجم على قوة المدافع ثم تتوسع هاته الإدراكات
فتتفرغ إلى كل ما فيه دفع المنافر من ابتداء بإهلاك من يتوقع منه الضر ومن طلب الكن
وأخذ السلاح ومقاومة العدو عند توقع الأخطار حتى في الحيوان . وما جعله □ في كل أنواع
الموجودات من أسباب الأذى لمريد السوء به أدل دليل على أن □ خلقها لإرادة بقائها وقد
عوض الإنسان عما وهبه إلى الحيوان العقل والفكرة في التحيل على النجاة ممن يريد به ضرا
وعلى إيقاع الضر بمن يريد به قبل أن يقصده به وهو المعبر عنه بالاستعداد . ثم إنه
تعالى جعل لكل نوع من الأنواع أو فرد من الأفراد خصائص فيها منافع لغيره ولنفسه ليحرص كل
على بقاء الآخر . فهذا ناموس عام . وجعل الإنسان بما أودعه من العقل هو المهيمن على بقية
الأنواع . وجعل له العلم بما في الأنواع من الخصائص وبما في أفراد نوعه من الفوائد .
فخلق □ تعالى أسباب الدفاع بمنزلة دفع من □ يدفع مريد الضر بوسائل يستعملها المراد
إضراره ولولا هذه الوسائل التي خولها □ تعالى أفراد الأنواع لاشتد طمع القوى في إهلاك

الضعيف ولاشتدت جراءة من يجلب النفع إلى نفسه على منافع يجدها في غيره فابتزها منه ولأفرطت أفراد كل نوع في جلب النافع الملائم إلى أنفسها بسلب النافع الملائم لغيرها مما هو له ولتناسى صاحب الحاجة حين الاحتياج ما في بقاء غيره من المنفعة له أيضا . وهكذا يتسلط كل ذي شهوة على غيره وكل قوي على ضعيفه فيهلك القوي الضعيف ويهلك الأقوى القوي وتذهب الأفراد تباعا والأنواع كذلك حتى لا يبقى إلا أقوى الأفراد من أقوى الأنواع وذلك شيء قليل حتى إذا بقي أعوزته حاجات كثيرة لا يجدها في نفسه وكان يجدها في غيره : من أفراد نوعه كحاجة أفراد البشر بعضهم إلى بعض أو من أنواع أخر كحاجة الإنسان إلى البقرة فيذهب هدرًا .

ولما كان نوع الإنسان هو المهيمن على بقية موجودات الأرض وهو الذي تظهر في أفراده جميع التطورات والمساعي خصته الآية بالكلام فقالت : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) إذ جعل الله في الإنسان القوة الشاهية لبقائه وبقاء نوعه وجعل فيه القوة الغاضبة لرد المفرط في طلب النافع لنفسه وفي ذلك استبقاء بقية الأنواع ؛ لأن الإنسان يذب عنها في بقائها من منافع له .